المشرق

الزلازل في سوريّة

بيان تواميسها وسيرها

للاب هنري لامنس اليسوعي

(تابع لما قبلُ)

وقد أسهب الكَتَبة الشرقيّون(١ في وصف الزلزلة التي وقعت في تشرين سنة ١١٣٨ (صفر ٥٣٣) وكانت فيها الزلازل عديدةً هائلة بالشام والجزيرة وكثير من البلاد واشدّ ما كانت بالشام لا سيّما حلب. قال كمال الدين المعروف بابن العديم في كتاب زبدة الحلب في تاريخ حلب(٢ : وفي يوم الخميس ثالث عشر صفر حدثت زلزلة شديدة ثمّ اتبعتها اخرى وتواصلت الزلازل فهرب الناس من حلب الى ظاهر البلد وخرجت الاحجار من الحيطان الى الطريق وسمع الناس دويًا عظيماً وانقلبت مدينة الاثارب . . . وهلك اكثر البلاد من شيخ وتلّ عماد وتلّ خالد وزَرْدَنا. وشوهدت الارض تموج والاحجار عليها تضطرب كالحنطة في الغربال وانهدم في حلب دور كثيرة وتشعّث السور واضطربت جدران القلعة . . . وتواترت الزلازل الى شوّال وقيل ان عدّتها كانت ثمانين زلزلة (اه). وروى السيوطي عن صاحب مرآة الزمان انها اهلكت مائتي الف وثلاثين الف انسان. ألا ان في هذا العدد غلوًا ظاهرًا

٣

وربّما يشتدّ لظى النيران الداخليّة حتّى تظهر مفاعيلهُ في الخطّين مما اعني في الخط الساحليّ والخطّ الشرقيّ. فتكون حينئذٍ الزلازل اسوأ عاقبةً كما جرى في زلزلة سنة ٨٥٩

١) راجع الكتبة الشرقيين في حروب الصليبيين الجزء الاوّل ص ٢٥ و ٤٣٣ والجزء الثالث ص ٥٠٢ و ٦٧٩ و ٦٨٠

٢) الجزء الثالث من الكتاب السابق ص ١٦٣٩

(٢٤٥ هـ). قال الطبري (١ «كانت في هذه السنة بانطاكية زلزلة ورجفة في شوّال فتات خلقاً كثيراً وسقط منها الف وخمسمائة دار ... وسمعوا اصواتاً هائلة لا يُحسنون وصفها من كُوى المنازل ... وتقطّع جبالها الأقرع وسقط في البحر فماج ... وارتفع منهُ دخان مظلم مُنتن وغار منها نهر على فرسخ لا يُدرى اين ذهب ... واصاب حمص ودمشق وابلها وطرسوس وادنة وسواحل الشام وارجفت اللاذقية فما بقي منها منزل ولا افلت من اهلها الّا اليسير وذهبت جَبَلة باسرها». وحدث مثل هذه الزلزلة في سنة ١١٥٧ (٥٥٢ هـ) خرب فيها بلاد كثيرة منها حماة وحمص وانطاكية واللاذقيّة وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكة. امّا قلعة شَيْزر فخربت كلُّها وقتل فيها جميع بني مُنقذ لانّ صاحب القلعة كان في ذلك اليوم ختن ولداً لهُ وعمل دعوةً دعا اليها كلّ بني مُنقذ في دارهِ. وكان لهُ فرس يحبُّهُ ولا يكاد يفارقهُ فكان المهر يومئذٍ على باب الدار فجاءت الزلزلة فقام الناس ليخرجوا من الدار فلمّا وصلوا مجتلين الى الباب رمح الفرسُ رجلًا كان اوّلهم وامتنع الناس من الخروج فسقطت الدار عليهم كلهم وخربت القلعة لم ينجُ منها الّا الشريد (١

ومما رواهُ المؤرخون عن المدن المصابة بزلزلة سنة ١٢٠٢ (٥٩٨ هـ) وهي بالخصوص حماة ودمشق وصور يمكن ان نستنتج ان الخطّين المشار اليهما قد أصيبا ايضاً على السّواء. وقد روى عبد اللطيف البغدادي تفاصيل هذا الحادث في كتاب الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة بمصر (طبعة مصر سنة ١٢٨٢ ص ٥٩) فاحببنا نقل كلامهِ ملخصاً لما فيهِ من الفوائد المبيّنة لغرضنا. فانّهُ بعد وصفهِ لما عاين من اثر الزلزلة في مصر اردف قولهُ: «ثم اخذت الاخبار تتواتر بحدوث الزلزلة في النواحي النائية والبلاد النازحة في تلك الساعة بعينها والذي صحّ عندي انّها حرّكت في ساعة واحدة طائفة من الارض من قوص الى دمياط والاسكندريّة ثم بلاد الساحل باسرها والشام طولًا وعرضاً وتعدّت بلاد كثيرة بحيث لم يبقَ لها أثر ...

«وسمعنا انّ الزلزلة وصلت الى اخلاط وتخومها والى جزيرة قبرس وانّ البحر ارتطم وتموّج وتشوّهت مناظرهُ فانفرق في مواضع وصارت فرقةً كالطواد وعادت المراكب على الارض وقذف سمكاً كثيراً على ساحلهِ»

---

١) راجع ابن الاثير في تاريخ سنة ٥٥٢ هـ

ثم ذكر عبد اللطيف نسخة كتابين وردا من حماة ودمشق يقال في الاول: «انه كان سحرة يوم الاثنين ٢٦ من شعبان حدثت زلزلة كادت الارض تسير لها سيرًا والجبال تمور موراً وما ظنّ احد من الخلق الّا انّها زلزلة الساعة . دامت دقيقتين في ذلك الوقت امّا الدقيقة الاولى فاستمرّت مقدار ساعة او تزيد عليها وامّا الثانية فكانت دونها ولكن اشدّ منها. وتأثّر منها بعض القلاع فاوّلها قلعة حماة مع اتقانها (١ وعمارتها وبارين مع اكتنازها ولطافتها وبعلبك مع قوّتها وثباتها. . . ثمّ حدثت في يوم الثلاثاء (٢٧ منهُ) عند صلاة الظهر زلزلة استوى في علمها اليقظان والنائم وتزعزع لها القاعد والقائم. ثم حدثت في هذا اليوم ايضاً وقت صلاة العصر. ووصل الخبر من دمشق بانّ الزلزلة افسدت فيها منارة الجامع الشرقيّة واكثر الكلاسة والبيمارستان جميعهُ وعدّة مساكن تساقطت على اهلها فهلكوا»

وفي الكتاب الآخر بعد تفصيل ما جرى من الخراب بدمشق يقول الكاتب: «وذُكر عن بلاد المسلمين انّ باتياس سقط بعضها وصفد كذلك ولم يبقَ بها الّا من هلك سوى ولد صاحبها وكذلك تبنين وتابلس لم يبقَ بها جدار قائم سوى حارة السَّمرة ويذكر انّ القدس سالم والحمد لله. واما بيت جنّ فلم يبقَ منهُ ولا اساس الجدران الّا وقد اتى عليه الخسف. وكذلك اكثر بلاد حوران غارت ولم يعرف لبلد منها موضع يقال فيه: هذه القرية الفلانية. ويقال انّ عكّة سقط اكثرها وصور ثلثها وعرقة خُسف بها وكذلك صافيتا. واما جبل لبنان فهو موضع يدخل الناس اليه بين جبلين يُجمع منهُ الرياس الاخضر فيقال انّ الجبلين انطبقا على من بينهما وكانت عدّتهم تناهز مائتي رجل. . . واقامت بعد ذلك الزلازل اربعة ايّام تحدث في النهار والليل. ونسأل الله لطفهُ وتدبيرهُ وهو حسبنا ونعم الوكيل»

ومما جاء في اخبار المماليك للمقريزي (٢ في تاريخ سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٧) ما ملخّصهُ: «انّ البريد الموصل من حماة الى مصر بكتاب مسجّل بتوقيع قاضي المدينة وفيه انّ في منتصف بعض الليالي سمع اهل بارين دويًّا هائلًا في الجبلين التي بينهما موقع قريتهم. فلمّا اسفر الصباح اسرع القوم زرافاتٍ الى محلّ الحادث فاذا باحد الجبلين قد انصدع في

١) وقد ذكر ابو الفداء خراب قلعة حماة في تاريخ هذه السنة ولم يزد على ذلك تفصيلًا

٢) Ed. Quatremère, IV, 261

وسطه فانضمّ قسم منهُ الى الجبل الآخر الموازي لهُ وبقي قسمٌ في موضعه وكان طول القسم المنتقل مائة وعشر اذرع والمسافة التي قطعها مائة ذراع ولم يصبهُ في انتقاله ادنى تغيير . وبقيت المياه الجارية في الوادي بين الجبلين على حالها . وكان لهذا الامر المستغرب شهرة عظيمة فاتى قاضي حماة بشهود وتحقّق الامر وسجّلهُ »

وبارين هذه في وادي العاصي في ممرّ خطّ سوريّة الشرقيّة . ولا شكّ ان ما رواهُ المقريزي قد سبّبتهُ زلزلةٌ وقعت في تلك السنة لم يفدنا عنها شيئاً غيرهُ من المؤرخين

وفي ما ذكر مؤرخو عصرنا عن زلزلة ١٨٣٧ ان الهزّة الاخيرة التي وقعت في اوّل كانون الثاني ابتدأت من جهة بحر لوط واجتازت بلاد الشام طولاً وتركت في سيرها آثار الخراب والدمار . فتعفّت آثار مدينة صفد وتواترت الهزّات في صور ودامت زمناً طويلاً . ولمّا مرّ بعض السيّاح في هذه البلدة بعد وقوع الزلازل بقليل اخبرهُ اهلها انّهم شعروا مدّة بضعة دقائق بهزّات قويّة بحيث خُيّل لهم ان الرأس الذي عليهِ مبنيّةٌ مدينتهم كاد ينفصل عن الساحل فيندحر في غمر البحر . وشهدَ لهُ الملاّحون ان سطح البحر تصاعد من الجهة الغربيّة فوق الصخور وذلك دليل بيّن على خسف في الارض(١

٤

لقد تغيّر مركز حركات الزلازل في مختلف اطوارها وانتقل كانتقال شرر الكهرباء ذهاباً وايّاباً في الاسلاك التلغرافية . فمن ثمّ نرى سير الزلازل في بعض الاوقات ينتقل على الخطّين المتوازيين السابق ذكرهما ثمّ ينعكس متقهقراً . ومثال ذلك زلزلة سنة ١١٥٧ م فانّ السيوطي ذكر ان الهزّة اتت من الشمال الى الجنوب مارّة بحماة ثمّ حمص ثمّ دمشق وانها عادت ثانية الى الشمال فشعر بها في حلب

وكان مبدأ الهزّات الارضيّة في سنة ١٧٥٩ واقعاً في ٢٠ نيسان فشعرت بها حلب خفيفةً ثم تفاقمت فابتُلي بها اهل طبريّة وجوارها في ٣٠ تشرين الاوّل وفي غرّة كانون الثاني . ثمّ تغيّر مركز قوّتها فمالت الى الشمال واصابت بعلبك وبلاد البقاع بضربات هائلة دُمّرت بسببها عدّة امكنة وتزعزعت آثار قلعة بعلبك الشهيرة فخرّب منها جانب كبير وبلغ عدد القتلى عشرين الفاً . وعقيب ذلك بثلاثة ايّام عادت الزلازل الى حلب فكادت تقوّض اركانها وبقي وادي الاردن راتعاً في الراحة والسكينة مدّة مائة سنة

(١ Jules de Bertou : *Topographie de Tyr, p. 8*

وبعكس الامر اخذت حركات الزلازل تتكرر منذ ذاك الحين في الخطّ الساحلي. ففي ١٤ شباط ١٧٦٤ جعلت طرابلس تمور وتهتز. وفي السنة التالية كان سيران الزلازل يتردد بين حلب وطرابلس وبقيت كذلك عدّة سنين حتّى انتهت بزلزال مريع شعرت به اللاذقية سنة ١٧٩٤ في ٢٤ نيسان فعاد خطّ الساحل الى هدوئه مدّةً

ولم يتّسع نطاق مراكز حركات الزلازل اتّساعاً بالغاً في سنة ١٨٢٢. فبعد ان سبقت لها علامات مملومة اخذت الهزّات تتناوب حلب في صبيحة ١٣ آب بشدّة غير مألوفة حتّى اخربت معظم تلك البلدة الزاهية العامرة. وفي الايام التالية انتقلت نقطة الحركات الارضيّة الى انطاكية وانتهت الى اللاذقيّة. ثمّ عاودت الزلازل حلب في ٥ ايلول فدمّرتها بحساب جُمَل فهلك من جرّائها عشرون الف نسمة. ولم تزل الهزّات تتوالى الى ايّار في سنة ١٨٢٣. فمذ ذاك الحين انتقل مركز حركة الزلازل الى الغرب في جهات انطاكية ومذ شهر حزيران من تلك السنة حلّت بها مرّةً بعد اخرى جرّعت اهلها المَضَض بينما عاد لحلب قرارها

وآخر اطوار الزلازل المشتهرة في سوريّة انّما كان في سنتي ١٨٧٢ و١٨٧٣. وبدء وقوع الزلزلة الاولى في ٣ نيسان سنة ١٨٧٢ اصابت شمالي سورية وكانت نقطتها المركزيّة ما بين انطاكية والسويدية. فكان عرضها قليل الاتّساع امّا طولها فامتدّ من ديار بكر الى بيروت ثمّ سارت الهزّات نحو الشرق وفي ٥ آب تفاقمت وابتلى الله بها البلاد الواقعة بين انطاكية وحلب. وفي غرّة السنة التالية عادت انطاكية فصارت مركزاً لصدماتها المرهبة وانتهت برجفات شديدة شُعِر بها على مدى ساحل فينيقية من يافا الى بيروت

٥

فممّا تقدّم يظهر للقُرّاء انّ البلاد التي استشرى فيها فساد الزلازل اكثر من سواها انما هي الواقعة في ضواحي حلب وانطاكية (١ اعني في جوار السهول الشاميّة التي اليها تنتهي آخر تفرُّعات جبال قيليقيسة. ومجمل ما راقبهُ العلماء من الزلازل في سوريّة يبلغ بالعدّ ١٢٣ زلزلة فاثنتان وستون منهـا كان معظم قوّتها في ما توسّط بين هاتين البلدتين. فليت شعري كيف لا يزال بعد هذه النوائب المتواترة اهل حلب مستوطنين بلدتهم. ولا جرم انّ ثباتهم فيها رغماً عن هذه الاخطار لدليل بيّن على مكانتها في الخطارة

١) راجع تاوفانس في تاريخ سنة ١٣٣ و ٤٠١ و ٤٦٩ وتاريخ الدول لابي الفرج في سنة ١٣٧ و ١٤٥

وحُسن موقعها للتجارة وذلك هو السبب الذي يحمل اهلها على تعميرها بعد تكبباتها بالزلازل. ويصح قولنا هذا في انطاكية نفسها ولو حمل ذكرها في زماننا

وللأذقية بعد حلب وانطاكية المقام الثالث في أفضية الزلازل المشؤومة ما لم تُقدَّم عليها صور لانَّ هذه ايضاً منذ عهد قديم اشتهرت بما يحلُّ بها من الزلازل كما شهد على ذلك كوينتس كورسيوس (الكتاب ٤ فصل ٤)

واذا أُصيب الخطّ الشرقي المارّ في واديَي العاصي والاردنّ اهتزّت ايضاً غالباً ضواحي دمشق كما جرى الامر في السنين الآتية ١١٣٨ و ١١٥٧ و ١١٧٠ و ١٢٥٩ الخ. ولكن قد يغلب عليها حسن العاقبة فلا تأتي بضرر كبير. ولم تعدّ دمشق الفيحاء نفسها مركزاً للزلازل الهامّ الّا في النادر. فاذا اصيبت يكون ذلك عَرَضاً لوقوعها في جوار خطّ سوريّة الشرقي المجتاز بطريق البقاع ووادي الاردنّ

وقد قرأنا في مقالة للدكتور شيان عن هواء اورشليم (١ انَّ اكثر وقوع الزلازل في وقت الامطار فانَّ رُصّاد الحركات الارضيّة وجدوا انَّهُ في مدّة اثنتين وعشرين سنة قد رُصد اثنتا عشرة زلزلة تسعٌ منها حلّت في فصل الامطار. وكان قد سبقهُ الى هذه الملاحظة الجغرافيّ الشهير مَلْت برون (٢ فقال صريحاً: انَّهُ لمن المقرَّر بالمراقبة انّ اغلب الزلازل تقع في الشتاء بعد امطار الخريف. وقد زاد على ذلك علماء الجمعيّة الجغرافيّة في برلين (٣ انّ حلول الزلازل في سوريّة وقت تهبّ الريح الجنوبية الشرقية فيثقل الهواء ويتكدّر الجوّ من جرّائه كما يحدث ذلك عند لفح السموم (الشلوق)

وكنّا نودّ ان نقابل هذه الملحوظات مع اقاويل الكتّاب الاقدمين الّا انَّ المؤرخين الشرقيين لم يأتوا بهذه التفاصيل المفيدة واستعنوا بالاوصاف العامّة. امّا الوقائع التي عيّنوا تاريخ شهرها ويومها فثلاث عشرة تسعٌ منها جرت في الشتاء من غرّة تشرين الثاني الى غاية نيسان وذلك مؤيّد لقول الدكتور شيان السابق ذكرهُ

وفي ختام مقالتنا نطلب من الله ان يصون بلادنا من شرّ هذا البلاء العظيم ويا ليت الاهلين يأخذون منهُ حذرهم فيكونوا على مقتضى قول الانجيل مستعدّين للاقاة ربّهم

(١ Z. D. P. V., XIV, 98

(٢ Géogr. II, 409

(٣ اعمال سنة ١٨٤٤ ص ٢٤٣